

هل الفكرة الصهيونية

موجودة في أدب كافكا؟

د. صالح الرزوق

الإحساس بها. وهذا يعني أنّ الحديث عن القلق الإنساني في أدب كافكا غير مرتبط بالضرورة بظروف يهود «الشتات» في أحيائهم الخاصة (الغيتو).

ثانياً- إذا كانت أعمال كافكا الإبداعية ذات شمولية وعمق إنسانيين، فإن رسائله ومفكراته - كما قدمها صديقه ماكس برود - تنم عن إيمان عميق وثابت بالجانب الإنساني لا السياسي من الفكرة الصهيونية. وإذا كان من الصعب جداً الفصل بين الناحيتين الإنسانية والسياسية في آية إيديولوجيا، إلا أنّ كافكا كان مصراً في الكثير من المواقف على فصل يهوديته (وهذه ذات اتهامات إنسانية كما يقول) عن صهيونيته.

فهو يقول في رسالة إلى أبيه منقولة عن كتاب كافكا: «تاريخ اليهود يمتاز بطابع الحكاية والأسطورة التي يرميها الطفل، فيما بعد، مع طفولته في قاع النسيان». ويذكر في يومياته بتاريخ ١٩١٤: «ما الذي يجمعني باليهود؟ لا شيء جماعي يربطني بنفسي. وإنه لخير لي أن أبقع يهوداً تاماً في زاوية من الزوايا. وإنني لفي غاية السرور بكوني قادراً على التنفّس^(١)».

إلا أنه يناقض نفسه بنفسه في رسالة بعثها من براغ إلى صديقه فيليس بوير بتاريخ ٢٩ تموز ١٩١٦ يبحث فيها على التطوع في خدمات «بيت الشعب اليهودي» الذي أسسه سينغريد ليهان. يقول لها في هذه الرسالة: «أنا شديد اللهفة لسماع خبر اشتراكك ومساهمتك». ولا يلبث أن يضيف متنصلاً من ارتباطه بالفكرة الصهيونية: «ما يهمني - ويهكم أيضاً - ليس الصهيونية بل ذلك الشيء تحديداً، وما يمكن أن يفرض عليه^(٢)».

فما هو ذلك الشيء الذي يشير إليه كافكا؟

يقول في رسالة إلى صديقه مؤرخة في ١١ أيلول ١٩١٦:

(٤) صلاح حاتم، «أضواء على موقف كافكا من اليهودية والصهيونية»، مجلة المعرفة، عدد ٢٤١، ص ٤٤.

(٥) فرانز كافكا، «رسائل حول البيت اليهودي»، مجلة الكرمل، عدد ٥، ١٩٨٢، ص ٢٩٧.

في كتاب واقعية بلا ضفاف يجتفي روجيه غارودي بالأدب الكافكاوي، ويعتبره شهادة واقعية صارخة عن القلق الوجودي الحديث، شأنه في ذلك شأن رسوم بيكاسو وأشعار سان جون بيرس. ويرى جورج لوكاش، مؤلف معنى الواقعية المعاصرة، أنّ كافكا يحقق في أعماله إدراك الواقع^(٣)، وأنّ قلق كافكا هو التجربة التي تصوّرها حركة المحدثين بلا منازع^(٤). ولم تُشر أي من الدراستين الرائدتين السابقتين إلى صهيونية كافكا من قريب أو من بعيد.

إنّ مسألة «صهيونية» كافكا أو عدم صهيونيته مسألة مقلقة ومحيرة، وذلك للأسباب التالية:

أولاً - إن أعمال كافكا الضخمة مثل القصر والمحكمة وأمريكا وأعماله الأخرى - القصص القصيرة - لا تقوم على فكرة لم الشتات أو الاندماج، وليست فيها أية إشارة إلى الأرض المقدسة. إن أدب كافكا، على خلاف أعمال حاييم بوتوك وليون بويرس وهرمان ووك، لا يضم في طياته الهاجس بوحدة «الشعب اليهودي»؛ كما أنّ لغته لا تبتهل بورع ديني لإله بني إسرائيل.

إنّ ما تقدمه كتابات كافكا - والنصوص الإبداعية منها حصراً - عن ضياع الإنسان المعاصر وعن قلقه وتآزمه لا يختلف عمّا تحدّث عنه كثير من الأدباء المحدثين أمثال فوكنر، وپو، وجويس. ويعتبره الناقد الأميركي ليسلي فيدلر في حديثه الممتع عن الحبّ والموت في الرواية الأميركية قمة الاتجاه الحديث، ويعتقد أنّ روايته أمريكا تنظر غرباً لا بعنوانها فقط وإنما بحكايتها أيضاً^(٥)؛ أي أنها لا تلتفت إلى الوراء لتنظر بانكساراً إلى الضياع في سيناء، بل تعالج انكسار المواطن - المفرد العادي واغترابه في خضم تناقضات الحياة الغربية الحديثة التي سرقت من الإنسان طفولته الأولى وشاعريته

(١) لوكاش، جورج: معنى الواقعية المعاصرة، (ترجمة د. أمين العبوطي، دار المعارف، مصر، ١٩٧١)، ص ٤٣.

(٢) المرجع السابق ص ٤٤.

(٣) Fiedler, Leslie A, Love of Death in the American Novel, (England: (٣)

1984), p. 492.

«العنصرُ الإنساني هو الأساس، العنصرُ الإنساني فقط. أرغب حقاً في سماع المزيد عن ذلك»^(٦).

أما عمّا يمكن أن تفضي إليه خدماتُ بيت الشعب اليهودي، فهذا ما يحدّده مؤسسُه سينغريد ليهان مؤلّف مفهوم الاستيطان اليهودي وبيت الشعب. كان كافكا وكذلك صديقته فيليس يعرفان تمام المعرفة أنّ فكرة الصهيونية تُدرّس في بيت الشعب اليهودي، كما أنّ فكرة الاستيطان تترعرع هناك. يقول في الرّسالة المؤرّخة في ١١ أيلول ١٩١٦: «وبالمناسبة، فيما يتّصل بالمحاضرة، يبدو أنّك كنتِ محظوظة بصورة خاصّة؛ إذ إنّها عاجلت المسألة الجذريّة التي لا سبيل إلى إبقائها في حالة سُبات، بل يجب أن تلتهم وتتوهّج مراراً، لتَهزّ ركائز الصهيونية ذاتها»^(٧).

وفي رسالة أخرى تاريخها ٢ آب ١٩١٦ يقول:

الرّواية الأدبيّة - وهي ليست كما يجب - تعكس جوّاً صهيونياً غريباً؛ ورغم ذلك، فإنّه لا حاجة بك للارتياح في «البيت اليهودي» من خلال الصهيونية، تلك التي لست تعرفينها بعدُ بصورة كافية. من خلال «البيت اليهودي» - الأكثر قرباً من

(٦) المرجع السّابق، ص ٢٩٨.

(٧) المرجع السّابق.

قلي - تتحرّك قوى أخرى وتمارس تأثيرها؛ وأما الصهيونية، اللّصيقة بمعظم يهود اليوم، فهي في حواشيتها الخارجيّة على الأقلّ مدخّل إلى شيء أبعد وأكثر أهميّة»^(٨).

إنّ التردّد الذي تعكسه المقتطفات السابقة ليس إلّا جزءاً من ماهية كافكا كإنسان وكأديب. فهو يصرّ على الجانب الإنساني من المسألة، ويتنصّل من الصهيونية كفكرة سياسيّة؛ وهو يشيخ عن اليهوديّة التقليديّة ويعتبرها مجرد حكاياتٍ وأساطيرٍ تليق بالأطفال، ولا يرى أواصر قويّة تجمعهم باليهود؛ ومع ذلك فإنّه يحدّ صديقتته على تقديم خدماتها إلى «البيت اليهودي». وهو يبدو متردّداً في أشياء عامّة أخرى مثل الزواج والنّشر.

غير أنّه لا مجال للتردّد حين نقرأ رسالته إلى فيليس، وهي مؤرّخة في ١٢ أيلول ١٩١٦، ففيها يقول:

الرّابطة بين هذا كلّ وبين الصهيونية - وهي رابطة واردة عندي، لا عندك، بالضرورة - تكمن في حقيقة أنّ العمل في «البيت» يستمدّ من الصهيونية منهجاً شاباً نشطاً نشاطاً شاباً في صورته العامّة، وحين تفضّل الوسيلة الأخرى فهي تضيء الطموحات القوميّة باستشارة الماضي السّالف المذهل - مع الإقرار بالقيود والحدود التي لا تستطيع الصهيونية بدونها أن تقوم. إنّ

(٨) المرجع السّابق.

نماذج من كافكا*

كُفّ عن ذلك

في الصّباح الباكر جدّاً، حين كانت الشّوارع نظيفةً ومهجورة، كنتُ في طريقي إلى المحطّة. وحينما قارنتُ ساعتني بساعة السّرج، عرفت أنّ ساعتني متأخرة أكثر ممّا توقّعت، وأنّ عليّ أن أغدّ السّير. وقد بعثت هزّة هذا الاكتشاف في نفسي الشكّ بالطريق. فأنا لم أكن حتّى هذه اللّحظة على معرفة جيّدة بالبلدة؛ ولحسن الحظ كان ثمة شرطني على مقربة منّي، فجريت إليه لاهتاً، وسألته عن الطّريق. فابتسم وقال: «أتسألني عن الطّريق؟». قلت: «نعم، فأنا غير قادر على اكتشافه بنفسني».

قال: «كفّ عن ذلك! كفّ عن ذلك»، واستدار بلفتة مفاجئة؛ مثل امرئٍ يرغب في مداراة ضحكته.

(*) هذه القصص مأخوذة من كتاب: The Penguin Complete Short Stories of Franz Kafka, (ed.) Nahum N. Glatzer, Penguin Books, England, 1983 وقد ترجمها د. صالح الرّزوق.

■ القرية المجاورة

اعتاد جدّي أن يقول: «إنّ الحياة قصيرة إلى حدّ مذهل». وأما بالنّسبة لي، وبعد تقليب النّظر في ما فات منها، فإنّ الحياة لتبدو مختزّلة إلى حدّ أنّي أستوعب، بشقّ النّفس، كيف يتأتّى لرجل شابّ أن ينطلق إلى القرية المجاورة دون أن يخاف (هذا إن تناسيتُ الحوادث) من أنّ ثمة حياةً عاديّة سعيدة قد تنقضي قبل أن تُستكمل هذه الرّحلة.

■ بروميثيوس

هنالك أربع أساطير تتعلّق ببروميثيوس:

فحسب الأولى كان بروميثيوس مربوطة إلى صخرة في الكوكاسوس لإفشائه أسرار الآلهة إلى بشر. فأرسلت الآلهة نسوراً تنغذّي على كبده، وكان هذا يرمّم باستمرار.

وحسب الأسطورة الثّانية، فإنّ بروميثيوس الذي وخزه ألم المناقير الجارحة، ضغط نفسه إلى الصّخرة بعمق، ثمّ بعمقٍ أشدّ حتّى بات جزءاً منها.

كيفية وصولك إلى اتفاق مع الصهيونية مسألة خاصة بك؛ أي اتفاق معها (واللامبالاة غير واردة) سوف يجلب لي السرور... ولكن إذا شعرت يوماً ما بأنك صهيونية، وأدركت بالتالي أنني لست صهيونياً - وهو إدراك قد ينبثق من تجربة وتدقيق - فإن الأمر لن يقلقني، ولا حاجة لأن يقلقك أنت؛ فالصهيونية ليست أمراً يفرق أصحاب المقاصد الراسخة^(٩).

في هذا الديالوج الطويل نسبياً - وهو ما أرى فيه مونولوجاً له شكل الديالوج - يقطع كافكا حبال التفسير والتأويل ويعلن على الملأ انفصاله عن الإيديولوجيا الصهيونية.

ثالثاً: يذهب بعض الباحثين في الأدب الكافكاوي إلى أن «ثيمات» أفاصيصة ورواياته تخدم الفكرة الصهيونية. ويتوسلون إلى ذلك بحل رموز نصوصه بطريقة حسابية بعيدة كل البعد عن التحليل الأدبي^(١٠). والحال أن «قصة بنات آوى وعرب»^(١١) ليست بعيدة - ولا سيما في الجانب الحوارية منها - عن الجذور التاريخية المدفونة للصراع العربي - الإسرائيلي. إلا أنها لا ترقى بأي حال من

(٩) المرجع السابق، ص ٢٩٩.

(١٠) كاظم سعد الدين: «حول رموز كافكا الصهيونية»، مجلة الأفلام، عدد ٦ تشرين الأول ١٩٧٤.

(١١) د. فيصل دراج وعمود موعد: «محاولة قراءة في الفكر السياسي لكافكا»، الموقف الأدبي، عدد ٩ حزيران ١٩٧٩.

الأحوال إلى مستوى يفلسف القضية الصهيونية أو يبرمج عناصرها وأبعادها.

رابعاً: لا يمكن أن يجعل من يهودية كافكا وحدها سبباً لنبس الرموز الصهيونية في أدبه. وإنه على الرغم من صعوبة الفصل بين الدوافع الإنسانية الظاهرية لإنشاء البيت اليهودي، والدوافع السياسية المحضة، فليس من حق أحد أن يزعم أن أدب كافكا أدب صهيوني أو يبشر بالصهيونية.

إن كاتب سيرة كافكا ومعذ مؤلفاته للنشر بعد وفاته، أقصد صديق عمره ماكس برود، قد أضفى على كافكا بعض الملامح الصهيونية. ولكن أحاديث كافكا الصريحة إلى صديقه فيليس بويسر تنفي تورطاً بالحركة الصهيونية، ولا تنفي متابعتها لأخبارها وعدم عدائه لها.

وفي كل الأحوال، فإن قراءة كافكا - وهو الكاتب الذي تُرجم إلى العربية مراراً وتكراراً - أمرٌ ضروري؛ لا لأنه من المحدثين الذين استوعبوا فاجعة الفرد في قلب الحضارة المعاصرة واغترابه وانسحاقه، فحسب، ولكن لأنه يتحدث في مفكراته ورسائله كذلك عن الفكرة الصهيونية التي عاش عصر انبثاقها وتطورها. ونحن دائماً بحاجة لأن نعرف المزيد عن الآخر مثلما نحن بحاجة إلى معرفة أنفسنا.

قالت القطة «أنت بحاجة إلى تغيير اتجاهك فحسب». ثم التهمت.

■ المغادرة

أمرت بإحضار حصاني من الحظيرة. لكن الخادم لم يفهم أوامري. فذهبت بنفسني إلى الحظيرة، وأسرجت صهوة حصاني وامتطيته. وعن بعد سمعت صوت بوق، فسألت الخادم عنه. ولكنه لم يكن على علم بشيء ولم يسمع شيئاً. وعند البوابة استوقفني وتساءل «إلى أين أنت ذاهب يا سيدي؟».

قلت «لا أعلم. إلى خارج هذا المكان، إلى خارج هذا المكان. إنني ذاهب إلى خارج هذا المكان ولا شيء آخر. هذه هي الطريقة الوحيدة التي أبلغ بها هدي».

سأل: «إذا أنت تعرف مرمك؟»

أجبت: «نعم. لقد أخبرتك توأ أنني أزمع أن أكون خارج هذا المكان. ذلك هو هدي».

وحسب الأسطورة الثالثة، فإن خيانتها قد تنوسبت عبر آلاف السنين؛ نسيها الآلهة، والتسور، ونسيها هو بالذات.

وحسب الأسطورة الرابعة، فقد ستم الناس جميعهم من هذه المسألة العديمة المعنى. لقد ضجرت الآلهة وضجرت التسور واندمل الجرح على مريض.

بقيت هناك كتلة من الصخور المبهمة. حاولت الأسطورة أن تفك عقدة الغموض. ومثلما جاءت من أس الحقيقة، فقد كان عليها أن تصير من جديد إلى لغز.

■ خرافة صغيرة

قال الجرذ أليس «في كل يوم يغدو العالم أصغر. كان في البداية كبيراً إلى درجة أنني خفت، فرحت أركض وأركض، ولقد سررت حينما رأيت، أخيراً، جدراناً على اليمين واليسار تلوح من بعيد. غير أن هذه الجدران الطويلة مالبت أن راحت تضيق بسرعة، إلى أن صرت إلى آخر قاعة، فرأيت في الزاوية فتحاً وجدنتني أندفع إليه».